بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

مقـدمــة

إن الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وبـعـد :

ما بعث الله نبيّاً ولا رسولاً ، إلاّ أيده بالمعجزة ، لتكون دليلاً لرسالته ، وتأييداً لدعوته وصدق نبوته .

كان القرآن الكريم معجزة نبينا محمد صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ الكبرى ، الذي أعجز الفصحاء والبلغاء ، وأهل العلم والفكر، قال الله تعالىٰ : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ٨٨] ، به أحيا الله القلوب ، وأنار البصائر ، وأخرج الأمة من الجهل والرذيلة والشرك ، إلى الهدى والفضيلة ، والإيمان واليقين ، فزكت بالقرآن ، وسادت بالقرآن .

قال تعالىٰ : ﴿ . . . **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من**

الظلمات إلى النور بإذنِ ربهم إلى صراطِ العزيز الحميد﴾ [سورة إبراهيم ، الآية : ١] .

ولقد عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أن سر سعادتهم في الدارين يكمن في القرآن الكريم ، فبات همهم تعلم القرآن حفظاً وفهماً وتطبيقاً ، فاسترشدوا بتعاليمه ، وعملوا بها بعد أن تدبروا آياته . وكان أحدهم إذا تعلم عشر آيات لا يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهن ، ويعمل بكل ما عرف فيهن ، فينفذ الأوامر أمراً أمراً ، ويجتنب النواهي والزواجر ، ففازوا وعزُّوا ونجحوا بالقرآن ، بعد أن حفظوه في صدورهم ، وفي أخلاقهم وسلوكهم .

فهم أهل القرآن ، وأهل التدبر والتفكر ، وهم أولو الألباب ، قال الله تعالىٰ : **﴿كتابٌ أنزلناه إليكَ مباركٌ ليدّبروا آياته وليتذكَّرَ أولو الألبابِ﴾** [سورة ص ، الآية : ٩] .

والقرآن كلام الله المعجز المنزل على محمد صلّىٰ الله عليه وسلّم ، ليتعبد بتلاوته ، ولتفهم معانيه وليعمل بما جاء فيه .

وحتى يتمكن الإنسان من العمل بالقرآن فلا بد له من تلاوته وفهمه .

وفهم القرآن يحتاج إلى تعلم وتفكر وتدبر ، وقد حثّ القرآن عليه ، ووبّخ الذين لا يتدبرونه ، قال تعالىٰ : **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** [سورة محمد ، الآية : ٢٤] .

ولكن كيف نفهم القرآن ؟ وما القواعد والأُصول التي يجب أن نقف عليها حتى لا نضل ونشقى ؟ هذا ماأجاب عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه هذا ، والمسمى «مقدمة في أُصول التفسير» . . وقام بشرح الكتاب ، فضيلة شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين حفظه الله . .

وقـد بيّن شيخنا في ثنـايا شـرحه القيّم ، أهميـة علم التفسير ، ومـاذا يجب على المسلم في تفسير القـرآن ، وأوضح كيف نفهم القـرآن الكريم كمـا فهمه سلفنـا الصالـح .. في أسلوب غض دقيق المبنى واضح وجلي المعنى ..

وقال يحفظه الله : «فـإن من المهم في كل فن أن يتعلم المـرء من أصوله ما يكون عوناً له على فهمه وتخريجه على تلك الأصـول ، ليكون علمه مبنيـاً على أسس قويـة ودعائم راسخـة ، وقد قيـل : من حُرِم الأصول حُرِمَ الوصول .

ومن أجل فنون العلم ، بل أجلّها وأشرفها علم التفسير ، الذي هو تبيين معاني كلام الله عزّ وجـلّ . وقد وضـع أهل العلم لـه أصولاً كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً ، ولعلم الفقه أصولاً» .

فمـا أحوج الأمـة اليوم إلى أن تعـود إلى كتاب ربهـا ، تستلهم منه الرشد ، وتهتدي بهداه ، متعبدة بتـلاوته ، متـدارسة ومتـدبرة في معانيه وأحكامه ، وعبره وعظاته ، مطبقـة ما جـاء فيه كمـا كان سلفنـا الصالح ، حتى تنال السعادة في الدنيا والآخرة .

أسأل الله أن يصلح لنا النيات والأعمال ، وأن يأخذ بأيدينـا لما يحبه ويرضاه ، وآخر دعوانا أن الحمـد لله رب العالمين ، وصلّىٰ الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وكـتـب :
أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد الطيار
الزلفي (روضة السبلة)
مساء يوم السبت ١٤١٥/١٠/٢٤ هـ
ص.ب : ١٨٨

المقدمـة

رب يسر وأعن برحمتك

الحمـد لله نستعينـه ونستغفـره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً، أما بعد:

الشرح

هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة، يخطبها الإنسان عندما يريد أن يتكلم عن حاجة يريدها، سواء كانت زواجاً أو أي شيء يحتاجه من أمور دينه ودنياه، ولهذا تسمى خطبة الحاجة، وهذه الخطبة تقدم الكلام عليها، وننبه الآن على فقراتٍ فيها.

قوله: (ومن يهده الله فلا مضِل له)، معنى قوله: من يهده الله: أي من يقدر له الهداية فلا أحد يستطيع أن يضله، وكذلك لا أحد يستطيع أن يخرجه من الهداية إذا هدي هداية التوفيق.

(ومن يضلل فلا هادي له)، أي: من يُقدَّر له الضلالة فلا أحد يهديه، سواء كان في الضلالة وأراد أحد أن ينتشله منها أم لا.

وقوله: (أشهد)، مع أن الأفعال التي قبلها لضمير العظمة: (إن الحمـد لله نستعينه ونستغفـره)، قيل: لأن الإفـراد ينـاسب التوحيد، (وأشهد ألا إله إلا الله)، هذا توحيد الله عزوجل، فالأنسب أن يوحد

لفظ الفعل (أشهد)، ولا يؤتى بالنون الدالة على العظمة، أو على المتكلم ومعه غيره.

المتن

أما بعد:

فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة؛ تتضمن قواعد كلية، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه والتمييز - في منقول ذلك ومعقوله - بين الحق وأنواع الأباطيل، والتبين على الدليل الفاصل بين الأقاويل.

الشـــرح

يعني بهذا الكلام أن تأليفه للكتاب له سبب، وسببه سؤال بعض الإخوان أن يكتب له في هذا الموضوع، والتأليف قد يكون ابتدائياً من المؤلف، حين يرى حاجة الناس إلى موضوع معين فيكتب فيه، وقد يكـن له سبب؛ مثـل سؤال بعض النـاس له أن يكتب في هذا الموضوع المعين، فالأول يكون مسئولاً بلسان الحال، والثاني يكون مسئولاً بلسان المقال.

إن العالم إذا رأى الناس محتاجين إلى شيء وألف، فإن حال الناس تستدعي أن يبين لهم هذا الأمر الذي وقعوا فيه، حتى يعرفوا حكمه، ويتعبد الناس فيه على بصيرة، وكذلك قد يُسأل عن أمر معين.

يقول المؤلف: (قواعد كلية)، القواعد جمع قاعدة، وهي أساس الشيء، ومنها قواعد البيت: أي أساساته، فالمقصود بها الأساسات

التي تعين على فهم القرآن، وحينئذ نعرف أن هذه القواعد هي قواعد تفسير؛ لتفسير القرآن، لأن فهم القرآن أحد الأمور الثلاثة التي قصدت بإنزال القرآن.

والقرآن الكريم نزل لأمور ثلاثة: التعبد بتلاوته، وفهم معانيه والعمل به، وبهذا كان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون العشر آيات حتى يتعلموها، وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل به، فالقرآن نزل لهذه الأمور الثلاثة.

أما لفظه فلا يكاد يشكل على أحد، أو يصعب على أحد، لأنه يقرؤه العامي والعالم والمتعلم، وأما فهمه فهو الذي يحتاج إلى تعلم وتفكر وتدبر، وأما العمل به فهو أشد على النفوس وأعظم، لأن النفس تحتاج إلى مجاهدة في إلزامها بما تقتضيه الحال؛ من تصديق الخبر، وامتثال الأمر، واجتناب النهي. وتأمل قوله تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩]، حتى يتبين لك أنه لا بد من فهم القرآن، ولا بد من العمل به.

وقول المؤلف رحمه الله في هذا المقام: (ومعرفة تفسيره ومعانيه). كل هذا من باب عطف التفسير أو عطف المترادف، كقول الشاعر:

ألفى قولها كذباً وميناً

وذلك لأن فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه أمور متقاربة، وإن كان فهم القرآن يتضمن فهم معناه،وفهم حكمه وأسراره، لأن القرآن له معاني، ولهذه المعاني والأحكام حكم وأسرار، ثم قد يقال: إن التفسير غير المعنى، التفسير تفسير اللفظ، والمعنى هو ما يراد

بالكلام، وسيأتينا من ذلك أمثلة إن شاء الله.

فالتفسير هو تفسير اللفظ فقط، كأن يفسر الكلمة كما ذكرها صاحب القاموس، مثل: ﴿أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع﴾، تفسيرها اللفظي أن تقول: يوم يأتي شيء من آيات الله الدالة على القدرة مثلاً: والمراد به طلوع الشمس من مغربها، فهنا صار فرق بين المعنى اللفظي، أي: التفسير اللفظي أو التفسير، والمعنى الذي يراد، ولهذا فالقرآن فُسر على الناحيتين؛ تفسيراً لفظياً مطابقاً للفظ فقط، وتفسيراً معنوياً، وهو ما يراد به، ثم قد يتوافقان وقد يختلفان.

فالمهم أننا إذا أردنا أن نجعل العطف في كلام المؤلف على التأسيس لا التوكيد والترادف، فنقول: إن فهم القرآن يريد به الحكم والأسرار التي يتضمنها، ومعرفة تفسيره، يعني معنى اللفظ فقط، ومعانيه، أي: معرفة المراد به.

(والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل)، أفاد المؤلف رحمه الله أن تفسير القرآن نوعان: نقلي وعقلي، ولكن يجب أن يكون التفسير العقلي غير مخالف للتفسير النقلي، لأن التفسير النقلي مقدماً عليه، وذلك لأن العقول يلحقها من الشبهات والشهوات ما يحرمها الوصول إلى معرفة الحق بخلاف المنقول، ومع ذلك ففي المنقول شيء من الباطل، ففيه إسرائيليات كثيرة أدخلت في التفسير، وفيه أحاديث موضوعة وضعيفة أدخلت أيضاً في التفسير، فاحتاج الإنسان إلى أن يعرف ما يميز بين الحق وأنواع الأباطيل.

قوله: (والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل)، أي: سواء

كان الـدليل نقلياً أم عقلياً، لأنه يجب أن نعتبر الدليل العقلي في القرآن ما لم يخالف المنقول، وإلا فالعقل لا شك أن له مدخلاً كبيراً في فهم القرآن، ولهذا يأمرنا عز وجل بالتفكر في كثير من آيات القرآن الكريم، بل إن التدبر في قوله تعالى: ﴿ليدبروا آياته﴾، يدخل فيه المعنى العقلي الذي يدركه الإنسان بعقله.

المتن

(فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين.

والعلم إمـا نقل مصدق عن معصوم، وإمَّا قول عليه دليل معلوم وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود).

الـشرح

العلم الحقيقي هو إما نقل مصدق عن معصوم وهو الرسول ﷺ، وإما قول عليه دليل معلوم، يعني قول لبعض العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، لكن عليه دليل معلوم من المعقول أو المنقول، ولهذا نحن نثبت دليل القياس، وهو من الدليل العقلي. وهذه ينبغي أن نجعلها قاعدة لمعرفة العلم الحقيقي، فهو إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم.

(وما سوى هذا فإما مزيف مردود وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود).

في هذا الكلام سجع، والسجع إذا لم يكن متكلفاً فإنه لا شك يزين الكلام ويحببه إلى النفس، ولهذا يقع أحياناً في كلام الرسول عليه الصلاة والسلام لكن بدون تكلف.

والمؤلف يقول: إن ما سوى ذلك المشار إليه ـ أي: النقل المصدق عن معصوم والقول الذي عليه دليل ـ (فإما مزيف مردود) وهذا يكون في مقابل النقل المصدق، (وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود)، يعني نتوقف فيه.

فالأقسام حينئذ ثلاثة: ما عُلمت صحته وهو الأول، وما علم بطلانه وهو الثاني، وما يجب التوقف فيه وهو الثالث، الذي لا نعلم هل هو من النقل المصدق عن معصوم، والقول الذي عليه دليل معلوم، أم أنه مزيف ومردود، فلا نعلم هذا ولا هذا. فالأول مقبول والثاني مردود والثالث متوقف فيه.

والبهرج هو المغشوش، وبهرج النقود من الذهب والفضة هي المغشوشة، والمنقودة أي: السالم منها.

المتن

(وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق على كثرة الترديد ولا تنقضي عجائبه).

الشرح

هنا يقول المؤلف رحمه الله: إن الناس محتاجون إلى فهم كتاب

الله. وهذا واضح، حاجة الناس إلى فهم كتاب الله ظاهر جداً، فإنهم في حاجة وفي ضرورة إلى فهم كتاب الله، لأنه الكتاب الذي أمروا باتباعه، والإنسان لو أمر باتباع كتاب مؤلف من المؤلفين احتاج إلى معرفته وشرحه فكيف بكتاب الله عز وجل؟؟.

ثم وصف المؤلف القرآن الكريم بعدة أوصاف، فقال عنه: (الذي هو حبل الله المتين)، حبل الله لأن الله تعالى هو الذي وضعه. والحبل في الأصل ما يتوصل به إلى غيره، كالسبب تقريباً، ولهذا فُسر قوله تعالى: ﴿**فليمدد بسبب إلى السماء**﴾ [سورة الحج، الآية: ١٥]، أي: بحبل. ووصف بأنه حبل الله لأنه موصل إلى الله عز وجل.

ووصفه بقوله: (والذكر الحكيم). وقد أخذ المؤلف رحمه الله هذا الوصف من قول الله تعالى: ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٥٨]، فهو ذكرٌ لأنه مذكر، وهو ذكرٌ لأن فيه الذكرى لمن تمسك به ورفع ذكره، كما قال تعالى: ﴿**وإنه لذكر لك ولقومك**﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٤٤]، يعني رفعة وشرفاً، والحكيم: معناه المحكم أو المتضمن للحكمة البالغة في أحكامه.

(والصراط المستقيم)، الصراط معناه الطريق، والمستقيم معناه المعتدل الذي ليس فيه ميل.

(والذي لا تزيغ به الأهواء)، الزيغ: معناه الميل، ومنه إذا زاغت الشمس: أي إذا مالت، يعني أن أهواء الناس مهما عظمت لا يمكن أن تزيغ به، بل إنه باق ثابت مهما سلط الناس عليه من الأهواء فإنها

لا تزيغ به لأنه هدى.

(ولا تلتبس به الألسن)، تلتبس: أي تختلط. فلأنه بلسان عربي مبين لا يمكن أن تختلط به الألسن، ولهذا حث الإنسان الأعجمي إذا قرأه أن يقرأه بلسان عربي، ولهذا كان من غير الممكن أن يترجم القرآن ترجمة حرفية أبداً.

وقوله: (ولا يخلق من كثرة الترديد)، معنى يَخْلقَ: أي يبلى، فهو على جدته، مهما قرأه الإنسان فكأنه لم يقرأه من قبل، لكن الإنسان إذا كرر أبلغ قصيدة من قصائد العرب ـ من المعلقات السبع أو غيرها ـ أو كرر أبلغ خطبة خطبها الخطباء كما يكرر القرآن لملَّ وسئم، لكن من القرآن ما نقرؤه في الصلاة الواحدة أكثر من مرة ومع ذلك لا نملّ، وهذه من آيات الله عز وجل في القرآن الكريم.

قوله: (ولا تنقضي عجائبه)، نعم لا تنقضي عجائبه لمن أعطاه الله تعالى فهماً لكتابه، فإنه يتذوق فيه المعاني العظيمة الكثيرة، أما المعرض عنه فإنه قد لا يرى فيه عجباً واحداً، لكننا هنا نصف القرآن من حيث هو قرآن، بقطع النظر عن القارىء.

المتن

ولا يشبع منه العلماء. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

الشرح

كل هذه الأوصاف حق يعرفها المتأمل. فإن العلماء لا يشبعون

منه، وكلما كان الإنسان بالله أعلم وبشرعه أعلم كان لكتابه أحب، فتجده دائماً يفكر ويتدبر هذا القرآن، سواء كان في مجلس العلم، أو وهو يمشي، أو في أي مكان، فالإنسان لا يشبع منه أبداً.

وكذلك (من قال به صدق)، لأنه قال قولاً هو أصدق الأقوال، فإذا قال قائل: إن الكافر في نار جهنم، صدق، لأنه قال بما جاء به القرآن.

قوله: (ومن عمل به أجر)، يعني أثيب على عمله.

(ومن حكم به عدل)، من حكم به عدل سواء كان الحكم فصلاً بين الناس، أو كان الحكم حكماً مطلقاً. فمن قال: إن الميتة حرام فقد عدل، ومن قال: إنه يجب العدل بين الزوجات ـ على سبيل المثال ـ فقد عدل، لأن هذا الحكم في القرآن، ومن قال: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، فقد عدل.

كذلك يقول: (ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم)، أي من دعا إلى القرآن، لأنه هدى الله عز وجل، فالإنسان إذا دعا إلى القرآن فقد هدي إلى صراط مستقيم، أما إذا دعا إلى الهوى، وحرف القرآن من أجل هواه فإنه يضل، ولهذا قال: ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

(ومن تركه من جبار قصمه الله)، ومعنى قصمه: أي قطع ظهره، ولكن لا يؤخذ علينا أننا نجد من الجبابرة الآن من ترك القرآن، لأننا نقول: إن القصم قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، فهذا إن فاته في الدنيا لم يفته في الآخرة.

المتـــن

قال تعـالى: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضـل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [سورة طه، الآية: ١٢٣ ـ ١٢٦].

الشـــرح

قوله: (إما يأتينكم) جملة شرطية، لأن أصلها إنْ مَا، وما زائدة للتوكيد، وفعل الشرط: يأتينكم، وجواب الشرط جملة: (فمن اتبع هداي) وهذه الجملة أيضاً جملة شرطية، فالجملة الشرطية الثانية ـ من فعل الشرط وجوابه ـ جواب للشرط الأول.

قولـه: **﴿فلا يضل﴾**، أي: لا يضل في علمه، ولا يشقى في عمله، وقيل لا يضـل في الـدنيا ولا يشقى في الآخـرة، والمعنيان متـلازمان، لكن الغالب أن الضلال في مقابلة العلم والهدى، وأن الشقاء في مقابلة السعادة، وهو العنت.

وقوله: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** قيل: إن المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه.

وقيل إن المراد بالمعيشة الضنك معيشته في الدنيا، وأنه وإن كان في سرور ظاهـر، فإن قلبه في ضيق وضنكٍ، كما قال الله تعالى:

﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٥]، وكما قال تعالى: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾** [سورة النحل، الآية: ٩٧]، فإن هذا يدل على أن من ليس كذلك فحياته غير طيبة.

وقوله: **﴿نحشره يوم القيامة أعمى﴾**، وذلك حساً ومعنى، ولهذا يقول: **﴿ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كَذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾** يعني تركتها ولم تعمل بها، **﴿وكذلك اليوم تنسى﴾** يعني تُترك.

والشاهد أن هذا فيه دليل على أن التمسك بهذا القرآن سبب للسعادة في الدنيا والآخرة، وأن المتمسك به لا يضل ولا يشقى، وأن الإعراض عنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة.

المتــن

وقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ـ ١٦].

الشــرح

عُلم من هذا أن القرآن موحى، وأنه سبب الهداية بإذن الله، وأن المهتدي به اتبع رضوان الله، كما قال تعالى: **﴿هدىً للمتقين﴾** [سورة البقرة، الآية: ٢]، وقال تعالى: **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم**

موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدىً ورحمة للمؤمنين﴾ [سورة يونس، الآية: ٥٧].

ثم يقول: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**، وسبل السلام مفعول ثاني ليهدي، لأن (يهدي) فعل ينصب مفعولين؛ الأول: (من اتبع)، والثاني: (سبل السلام).

وفي هذه الآية قال تعالى: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**، مع أن سبيل الله واحد، كما قال الله تعالى: **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**. [سورة الأنعام، الآية: ١٥٣]. والجمع بين الآيتين بأن يقال: إن سبيل الحق واحد، لكن له فروع وشعب، من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وبر وصلة وما أشبه ذلك، هذه سبل لكنها تجتمع كلها في سبيل واحد، وأيضاً لا يمكن أن تطلق سبل ويراد بها الإسلام، وإنما تضاف كما في سبل السلام، فإذا كانت كلها مؤدية إلى السلام فهي الإسلام.

وقوله عز وجل: **﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾** أي: المعنوية لأن القرآن هدايته معنوية. فيخرجهم من الظلمات أي: ظلمات الجهل، وظلمات القصد، وظلمات الجهل ألا يكون عند الإنسان علم، وظلمات القصد أن يكون عنده علم لكن لا يريد الحق ولا يؤمن به، إذاً النور نور العلم ونور العمل.

وقوله: **﴿بإذنه﴾**، في الآية: **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾** قد يقول قائل: كيف قال الله تعالى يهدي به بإذنه مع أن الله تعالى لا يهدي إلا بعد

أن يريد؟ فيقال: إن قوله: بإذنه متعلق بقوله من اتبع، يعني من اتبع رضوانه بإذنه، لأن الإنسان لا يستقل بعمله ولا رأيه، فهو لا يفعل إلا بإذن الله.

وقوله: ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾، هذا من باب عطف الصفة، لأن قوله: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ هو معنى قوله تعالى: ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ إلّا أن تفسر الهداية الأولى بهداية التوفيق، والثانية بهداية الدلالة، ولهذا عديت الثانية بإلى وعدّيت الأولى بنفسها، ويكون المعنى أن من اهتدى بالإسلام زاده الله تعالى علماً، كما في قوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[سورة محمد، الآية: ١٧].

المتن

وقال تعالى: ﴿الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ [سورة إبراهيم، الآيتان: ١ ـ ٢].

الشرح

هذا كالأول تقريباً لكن فيه فائدة، وهي صحة إضافة الشيء إلى سببه المعلوم لقوله: ﴿لتخرج﴾ يعني أنت، مع أن المخرج حقيقة الله، ولهذا قيده بقوله: ﴿بإذن ربهم﴾، حتى لا يُظنَّ أن السبب مستقل، فإضافة الشيء إلى سببه المعلوم أمر جائز، ولا أحد ينكره، فقد جاءت به السنة، وجاء به القرآن إذا كان السبب معلوماً؛ إما

بالشرع وإما بالحس والواقع، ولكنّ هذا السبب يجب إذا اعتقدت أنه يحصل به الشيء، يجب أن تعلم أن هذا السبب ليس مؤثراً بنفسه، بل بإذن الله الذي جعله سبباً، ولهذا قال هنا: ﴿بإذن ربهم﴾.

وقوله: ﴿الحميد﴾ بوزن (الفعيل). هل هو بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول أو بمعناهما؟ والجواب أنه بمعناهما، فهو محمود سبحانه وتعالى على أفعاله وصفاته، وهو حامد لعباده الذين يستحقون الحمد والثناء.

وقوله: ﴿الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ الله هنا لفظ الجلالة بدل من العزيز.

المتن

وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض، ألَا إلى الله تصير الأمور﴾.

الشرح

قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾، ﴿روحاً﴾ أي القرآن، وسماه الله تعالى روحاً لأن فيه الحياة المعنوية، وإن شئت فقل الحقيقية أيضاً، لأن من اهتدى به فإن له الحياة الكاملة في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: ﴿روحاً من أمرنا﴾، يعني مما نأمر به ونوحي به، وبهذا

استدلننا على أن القرآن غير مخلوق، من قوله: ﴿**من أمرنا**﴾، وكذلك أن الله قـال في آية أخرى: ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾، فجعل الأمر قسيماً للخلق. والقرآن من الأمر لا من الخلق، فتبين بهذا أن القرآن غير مخلوق.

وقـولـه: ﴿**مـا كنت تدري ما الكتـاب ولا الإيمـان**﴾، فالفعل (تدري) ينصب مفعولين، وما استفهام مبتدأ، والكتاب خبر، والجملة من المبتـدأ والخبـر في محل نصب سد مسد مفعولي تدري، لأن الرسول ﷺ ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى إليه.

وقوله: ﴿**ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء**﴾، يعني صيرنا هذا الروح الذي أوحينا إليك نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا. وكلمة من نشاء من عبادنا عامة، ولا ندري من الذي يشاء الله أن يهديه بالقرآن، لكن إذا رجعنا إلى الآية التي قبلها صار الذي يهديه به الله من اتبع رضوانه من عباده.

وقوله: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾، هنا قال ﴿**نهدي به**﴾ وفي نفس الآية ﴿**وإنك لتهدي**﴾.. لكن بين الهدايتين فرق؛ ﴿**نهدي به**﴾ هداية توفيق وهداية دلالة، ولهذا عديت بنفسها ﴿**نهدي به من نشاء**﴾. وأما ﴿**وإنك لتهدي إلى**﴾، فهي هداية دلالة، فالرسول يهدي إلى ولا يهدي مَن. قال تعالى: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾ [سـورة القصص، الآية: ٥٦]، لكن ﴿**وإنـك لتهـدي إلى صراط مستقيم**﴾، فهـو عليه الصـلاة والسلام يدل الناس، لكن ليس بيده هداية التوفيق.

يقول: ﴿**صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض**﴾،

هنا الصراط أضيف إلى الله عز وجل، وقد أضيف في سورة الفاتحة إلى غير الله، فقال تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. ولا تعارض بين الإضافتين، فإن إضافته إلى الله باعتبار أنه هو الذي وضعه لعباده، وأنه موصلٌ إليه، وإضافته إلى الناس في قوله: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾، باعتبار أنهم أهله وسالكوه، فالإضافة مختلفة، فلهذا صح أن تضاف إلى هذا تارة وإلى هذا تارة.

وقوله: ﴿**ألا إلى الله تصير الأمور**﴾، الأمور هنا أي الشؤون؛ كل الأمور الدنيوية والأخروية، الشرعية والكونية، كلها تصير إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا لا مرجع للخلق إلاّ ربهم سبحانه وتعالى، في جميع أحوالهم وشؤونهم الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ [سورة الشورى، الآية: ١٠]، وكذلك الأمور الكونية، ﴿**قل من بيده ملكوتُ كل شيء، وهو يُجير ولا يُجارُ عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله**﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٨ - ٨٩].

وتصدير الجملة بألاَ - في قوله: ﴿**ألاَ إلى الله تصير الأمور**﴾ - للتنبيه الدال على الأهمية. وتقديم المتعلق يفيد الحصر، يعني: ألا إلى الله لا إلى غيره.

المتـــن

وقد كتبت هذه المقدمة مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء الفؤاد، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

الشـــرح

يقول المؤلف: (وقد كتبت هذه المقدمة)، والمقدمة يجوز فيها

وجهان: المقدَّمة والمقدِّمة، فالمقدَّمة باعتبار أن الكاتب قدمها بين يدي الكتاب، والمقدِّمة باعتبار أنها تقدمة للكتاب، كأنها تقدم الكتاب.

فصـــل
في أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن

يجب أن يُعْلم أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه، كفوله تعالى: ﴿لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٤] يتناول هذا وهذا.

الشـــرح

وكذلك قوله تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾، يتضمن هذا وهذا؛ أي: بيان لفظه وبيان معناه، وفي هذا رد واضح على أهل التفويض، الذين يقولون: إن الرسول ﷺ لم يبين معاني أسماء الله وصفاته، فقد سبق لنا أننا نقول لهم: قولكم هذا إما أن تعنوا أن رسول الله ﷺ جاهل بمعاني أسماء الله وصفاته، وإما أنه كاتم لما يعلمه من ذلك، فإن قلتم بالأول وصفتموه بالجهل، وإن قلتم بالثاني وصفتموه بالخيانة.

وقوله: ﴿لتبين للناس ما نُزّل إليهم﴾، اللام هذه للتعليل، يعني لأجل هذا. وليست للأمر، والدليل على أنها ليست للأمر أن الفعل بعدها منصوب.

المتـــن

وقد قال أبو عبدالرحمن السُّلَمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود غيرهما ـ أنهم كانوا

إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[١]. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا[٢].

الشـــرح

توضيح من الشيخ:

(يعني صار جليلاً معظماً، لأنهم لا يحفظونه إلا إذا عرفوا معناه، ومعنى ذلك أن الإنسان إذا كان يحفظ البقرة لفظاً ومعنى، وآل عمران لفظاً ومعنى، فعنده علم كبير).

المتـــن

وأقـام ابن عمـر على حفظ البقرة عدة سنين - قيل ثماني سنين - ذكره مالك[٣]. وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كتاب أنزلناه إليـك مبـارك ليـدَّبروا آياته﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩]، وقال: ﴿أفـلا يتـدبرون القرآن﴾ [سورة محمد، الآية: ٢٤]، وقال: ﴿أفلم يدبـروا القـول﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٦٨]. وتدبر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة رقم (٢٩٩٢٩) وابن سعد في الطبقات (٦/١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٦١٧)، ومسلم رقم (٢٧٨١).

(٣) في الموطأ رقم (١١) كتاب القرآن - بلاغاً.

الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ [سورة يوسف، الآية: ٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه.

الشــرح

قولـه تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾، فبركة القرآن في تلاوته، والعمل به، وما يحصل فيه من التأثير على القلب لزيادة الإيمان، ومعرفة الله عز وجل وأسمائه وصفاته وأحكامه، وكذلك ما حصل فيه من التأثير على الأمم، حيث فتح الله بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها. كل هذا من بركاته، وكذلك ما حصل للمتمسكين به من الرفعة والعزة والظهور على جميع الأمم، وكذلك ما يحصل للمتمسك به من صحة القصد، وسلامة المنهج، والسعادة في الدنيا والآخرة. فالمهم أن بركات هذا القرآن لا تحصى.

وقوله: ﴿**ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾، هذا فيه ثناء عظيم على من تذكر بالقرآن واتعظ به، وأنه هو صاحب اللب، أي العقل.

قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾، هذا فيه حث على تدبر القرآن، لأن الله وبخ هؤلاء الذين لا يتدبرون، وقوله تعالى: ﴿**أفلم يدبروا القول**﴾ كذلك، والمراد بالقول هنا القرآن، واقرأ قوله تعالى: ﴿**أفلم يدبـروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، أم لم يعـرفوا رسولهم فهم له منكرون**﴾، [سورة المؤمنون، الآيتان ٦٨، ٦٩]، فأتى بالقرآن وأتى بالسنة: ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون**﴾.

قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾. لعل هذه للتعليل، وتعقلون يعني تفهمونه فهماً كاملاً، لأنه من المعلوم أنه لو نزل على العرب بلغة غير العربية، ما عقلوه ولا فهموه. والعقل يأتي بمعنى الفهم، كما قال الله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمَّ يحرِّفونه منْ بعدِ ما عقلوه وهم يعلمون﴾ [سورة البقرة، الآية: ٧٥].

المتــن

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصـود منـه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحسـاب ولا يستشـرحـوه. فكيف بكـلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟!

الشـــرح

هذا كلام صحيح، فإننا لو كنا مثلاً ندرس كتاب زاد المستقنع، ونقرأه ثم نمشي فإننا لا نستفيد، وكذلك لو قرأنا كتاباً مثلاً في الطب أو في الكيمياء أو ما أشبه ذلك؛ بأن نقرأ ونمشي، فإننا لن نستفيد أبداً، فلقد جرت العادة المؤكدة أنه لا يمكن أن نقرأ أي كتابٍ إلاّ ونستشرحه، بأن نطلب من يشرحه لنا، وإلاّ صارت قراءتنا له عبثاً.

ولا يقال إن القرآن يختلف عن ذلك لكون الإنسان يثاب على تلاوتـه، فيقال إن القرآن له جهتان: جهة تعبد وجهة عمل وتنفيذ، فالأولى قد تحصل بأن يتعبد الإنسان لله عز وجل بقراءة القرآن. لكن الثـانية التي نزل من أجلهـا ﴿ليدَّبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾

مفقودة في حق من لم يعرف معنى القرآن ولم يتعظ به.

المتـــن

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى من بعـــدهم، وكلمـــا كان العصـــر أشـــرف كان الاجتمـــاع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر.

الشـــرح

وجه كون النزاع في التفسير في الصحابة أقل لسببين:

السبب الأول: أن القرآن نزل بلغتهم التي لم تتغير، فكانوا أفهم الناس لمعانيه، وأفضل له، ثم تغيرت الألسن بعدهم.

السبب الثـاني: قلّةُ الأهـواء فيهم وسـلامة قصدهم، فما تجد الرجل ينتصر لهواه ورأيه، ولكن كان الواحد منهم لا يقصد إلّا الحق أينما وجده أخذه، حتى أن الخليفة يرجع إلى الحق الذي ذكرته به امرأة من النساء، ولم يقلْ أنا الخليفة لا يُردُّ عليّ فأنا أعلم منها، وما قال: أنا ليّ السلطة.

فلهذين السببين كان الخلاف بين الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير كلام الله أقل.

ثم جاء التابعون من بعدهم فحصل نقص لا في السبب الأول ولا في السبب الثاني. بل كثرت الفتوح في زمنهم، واختلط العربي بالعجمي وتغيرت الألسن ـ كما كان أول تأليف للنحوـ وذلك في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأيضاً كثرت الأهواء والفتن وانتصار الإنسان لرأيه، حتى أدى ذلك إلى التطاحن والتقاتل بين المسلمين، وعلى هذا فيكون الخلاف بينهم في تفسير كلام الله أكثر من الخلاف بين الصحابة، فكلما بَعُدَ العهد عن عصر النبوة صار البلاء أشد، والتباس الحق بالباطل أعظم، وكما تجدون الآن في زماننا هذا، كلُّ عمود في مسجد تحته عالم يرى نفسه أنه ابن تيمية، وكل خيمة في منى فيها عالم يرى نفسه أنه أحمد بن حنبل أو الشافعي.

ولهذا كثرت الأهواء حتى أنك لتجد في المسألة التي ليس فيها فيما سبق إلاّ قول واحد أو قولان، تجد فيها عدة أقوال، لأن العلم قليل والهوى كثير، فترتب على نقص العلم وكثرة الهوى الضياع والخلاف والشقاق وعدم الائتلاف.

المتن

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها، ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال.

الشــرح

وهـذا أمر لا بد منه؛ كون التابعين يزيدون على الصحابة في الاستدلال والاستنباط أمر لا بد منه وضروري، لأنه حدثت أمور لم تكن معهـودة في عهـد الرسول عليه الصلاة والسلام، وهكذا كلما طرأت أمور جديدة لم يُنص على عينها في الكتاب والسنة فلا بد من أن يكون هناك استنباط واستدلال لعلماء العصر، حتى يطبقوها على ما في الكتاب والسنة، لأن الكتاب والسنة لم يأتيا بكل مسألة تحدث بعينها إلى يوم القيامة.

إذا لو أتى بذلك لكان المصحف أكبر مما عليه مائة مرة، وأيضاً لأتى للناس بما لا يعرفونه، فمثلاً سيتحدث عن الشيكات وعن البنوك وعن التأمينات، ومثل هذه الأشياء، يتحدث عنها في عهد الصحابة وهم لا يعرفون ذلك. أما الآن فكلما حدثت أمور وجدت أمور صار لعلماء المسلمين من النظر والاستدلال والاستنباط ما لم يكن لغيرهم، حتى يطبقوها على ما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فصل
في اختلاف السلف في التفسير وأنه اختلاف تنوع

المتن

والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك صنفان:

الشرح

هنا أثبت المؤلف أن السلف قد يكون بينهم خلاف في تفسير القرآن، لكن خلافهم في تفسير القرآن أقل من اختلافهم في الأحكام، لأن تفسير القرآن هو تبيين ألفاظه؛ معناها والمراد بها، وهذا شيء يقل فيه الخلاف، لكن الأحكام مبنية على الاجتهاد والنظر والقياس، فصار الخلاف فيها أكثر من الاختلاف في التفسير، وذلك لاختلاف الناس في العلم والفهم.

وقد سبق لنا أن قلنا إن هناك فرقاً بين التفسير بالمعنى والتفسير باللفظ؛ فتفسير اللفظ شيء وتفسير المعنى الذي يراد بالآية شيء آخر، أي أن اللفظ يفسر بمعناه بحسب الكلمة، ويفسر بالمراد به بحسب السياق والقرائن.

والفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد. أن اختلاف التضاد لا يمكن الجمع فيه بين القولين، لأن الضدين لا يجتمعان.

واختلاف التنوع يمكن الجمع فيه بين القولين المختلفين، لأن كل واحد منهما ذكر نوعاً، والنوع داخل في الجنس، وإذا اتفقا في الجنس فلا اختلاف.

وعلى ذلك فاختلاف التضاد معناه أنه لا يمكن الجمع بين القولين لا بجنس ولا بنوع، ولا بفرد من باب أولى، واختلاف التنوع معناه أنه يُجمع بين القولين في الجنس ويختلفان في النوع، فيكون الجنس اتفق عليه القائلان ولكن النوع يختلف، وحينئذ لا يكون هذا اختلافاً، لأن ذكر كل واحد منهما نوعاً كأنه على سبيل التمثيل.

وساق المؤلف أمثلة على ذلك، لكن لما كان لا بد لنا أن نعرف الفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد، بيَّنا أن اختلاف التضاد معناه أنه لا يمكن الجمع بين القولين لتضادهما، واختلاف التنوع معناه أنه يمكن الجمع بين القولين لاتفاقهما في الجنس.

المتن

أحدهما أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة.

الشرح

اختلاف التنوع جعله المؤلف صنفين:

الأول: (أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة

صاحبه)، والضمير في منهم هنا يعود على الصحابة، بل على السلف أعم، يعني يشمل الصحابة والتابعين، يعبر بعبارة غير عبارة صاحبه، لكن تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، معنى ذلك أنهما اتفقا على المراد لكن عبر كل واحد منهما عنه بتعبير غير تعبير الآخر، وإلّا فهما متفقان، كما لو قال قائل في تعريف السيف: هو المهند، وقال الآخر: السيف هو الصارم، وقال الثالث: السيف ما تقطع به الرقاب، وما أشبه ذلك، فهذا في الحقيقة ليس بخلاف.

وكذلك لو قال إنسان: الغضنفر الأسد، وقال آخر: الغضنفر القصورة، وقال ثالث: الغضنفر الليث، وما أشبه ذلك، فليس هذا خلافاً ولا تنوعاً أيضاً، لكن كل لفظة تدل على معنى لا تدل عليه اللفظة الأخرى والمسمى واحد.

وهذا هو المقصود بعبارة المؤلف (أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى).

ثم قال المؤلف: إنها (بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة)، وهذه فيها إشكال إلّا إذا كان المؤلف رحمه الله يريد بها معنى آخر؛ فالأسماء المترادفة هي الدالة على معنى واحد، والأسماء المتباينة هي الدالة على معنيين. فهذه الأسماء باعتبار دلالتها على المسمى مترادفة، وباعتبار دلالتها على معنى يختص بكل لفظ منها تكون متباينة.

المتــن

(كما قيل في اسم السيف الصارم والمهند، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله ﷺ، وأسماء القرآن. فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد).

الشــرح

أسمـاء الله كما تعرفون كثيرة جداً، لكن مسماها واحد. فهي مترادفة من حيث دلالتها على الذات متباينة من حيث اختصاص كل اسم منها بالمعنى الخاص به. وكذلك أسماء الرسول ﷺ متعددة، وهي باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، وباعتبار دلالة كل لفظ منها على معنى آخر متباينة. وكذلك القرآن يسمى القرآن والفرقان والتنزيل وغير ذلك، فهذه الألفاظ باعتبار دلالتها على القرآن مترادفة، وباعتبار أن كل واحد منها له معنى خاص متباينة.

المتــن

فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر، بل الأمر كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١١٠] وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الاسم، كالعليم يدل على الذات والعلم، والقدير يدل على الذات والقدرة، والرحيم يدل على الذات والرحمة.

الشــرح

إذن هذه الأسمـاء الثـلاثة باعتبار دلالتها على الذات مترادفة،

وباعتبار دلالة الأول: على العلم، والثاني: على القدرة، والثالث: على الرحمة، فهي متباينة.

المتـــن

ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون: لا يقال هو حي ولا ليس بحي، بل ينفون عنه النقيضين، فإن أولئك القرامطة البـاطنية لا ينكرون اسماً هو علم محض كالمضمرات، وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات، فمن وافقهم على مقصودهم كان ـ مع دعواه الغلو في الظاهر ـ موافقاً لغلاة الباطنية في ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك.

الشـــرح

والمؤلف رحمه الله لتشبعه بهذا العلم صار لا بد أن يذكره.

هنا في أسماء الله تعالى انقسم الناس فيها إلى أقسام؛ منهم من جعلها أعلاماً محضة لا تدل على المعنى إطلاقاً، ومنهم من جعلها أعلاماً وأوصافاً، ومنهم من قال: لا نقول: إنه حي ولا نقول: إنه ليس بحي، ننكر هذا وهذا. فالباطنية يقولون: لا نقول إنه حي ولا نقول إنه ليس بحي. إذاً فما هو؟ يجيبون بقولهم: إن الحياة والموت لا يصح نفيهما وإثباتهما إلّا لمن هو قابل لذلك، والله تعالى ليس بقابل للحياة ولا للموت، ولهذا لا يوصف الجدار بأنه حي ولا ميت.

وللإجابة على ذلك نقول لهم إن دعواكم إن الحياة والموت لا

يوصف بها إلا من كان قابلاً لها مجرد دعوى أو عرف اصطنعتموه، فالله سبحانه وتعالى وصف الأصنام بأنهم أموات، ونفى عنهم الحياة. فقال **﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء﴾** [سورة النحل، الآية: ٢١]، وهم يعبدون شجراً وحجراً وما أشبه ذلك، فانتقض قولهم بنص القرآن.

أما زعمهم أننا لو قلنا: إن الله حي شبهناه بالأحياء، ولو قلنا: إنه ميت شبهناه بالأموات. نقول: فإنكم على زعمكم هذا قد شبهتموه بالجمادات. فما دمتم تقولون: إنه غير قابل للحياة والموت كالحجر فقد شبهتموه بالجماد.

ثم نقول لهم: هب أننا تنازلنا معكم، لكن أنتم تقولون: إننا لا نقول: إنه موجود ولا غير موجود، فنفيتم عنه الوجود والعدم، وهذا مستحيل باتفاق العقلاء، لأن المقابلة بين الوجود والعدم مقابلة بين نقيضين؛ يجب إذا ارتفع أحدهما أن يثبت الآخر، لكنكم تقولون لا يجوز أن نقول: إن الله موجود ولا يجوز أن نقول إن الله ليس بموجود.

أما إذا قالوا لا نقول موجود ولا غير موجود، يعني أنك إذا قلت: إنه موجود فقد ألحدت، وإن قلت: معدوم، فقد ألحدت، وهذا غير ممكن، ونقول: الآن شبهتموه بالمستحيلات والممتنعات التي لا يمكن وجودها.

وهذا مذهب الباطنية في الله عز وجل؛ يقولون: لا يمكن أن نثبت لله اسماً ولا معنى بل ننفي عنه النقيضين.

والأخرون ـ وهم المعتزلة وأهل الظاهر الذين يغالون في إثبات

الظاهر ـ يقولون: إننا نثبت الاسم لكن ما نثبت له معنى، ونقول هذه الأسماء مجرد أعلام فقط، أي سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، ورحيم بلا رحمة وهكذا، أي مجرد علم، كأنك تقول لهذا الرجل محمد وهو مذموم ما فيه خصلة حميدة، وتقول لهذا الرجل عبدالله وهو من أكفر عباد الله وينكر وجود الله. إذاً معنى قولنا عبدالله مجرد علم يُعيِّنُ مسماه فقط، فهم يقولون: إن أسماء الله هكذا أعلام محضة، ليس لها معنى ولا تحمل معنى إطلاقاً.

وهذا الكلام الذي جاء به المؤلف جاء به استطراداً وليس له دخل في التفصيل، لأنه قال: (وليس هذا موضع بسط ذلك) اللهم إلّا أن يقال: قد يدخل في التفسير من حيث إن في القرآن أسماءً كثيرة لله عز وجل.

المتــن

وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته، ويدل أيضاً على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم.

الشــرح

إن الاسم يدل على الصفة التي تضمنها وعلى صفة أخرى تضمنها اسم آخر بطريق اللزوم، مقالة اسم الخالق دل على الذات وعلى صفة الخلق، ودل على العلم الذي تضمنه اسم العليم، وعلى القدرة التي تضمنها اسم القدير، ودل اسم الخالق على العليم

القدير، لأنه لا يمكن أن يخلق إلّا بعلم وقدرة، ولهذا قال الله عز وجل: **﴿الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾** [سورة الطلاق، الآية: ١٢]، وهذا واضح. فلو أن أحداً صنع جهازاً من الأجهزة فلن يمكن أن يصنعه وهو لا يدري كيف يصنعه ولن يمكن أن يصنعه وهو أشل لأنه لن تكون له قدرة.

المتـــن

وكـذلـك أسمـاء النبي ﷺ مثـل محمـد وأحمـد والماحي والحـاشـر والعاقب، وكذلك أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب وأمثال ذلك.

فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم، وقد يكون الاسم علماً وقد يكون صفة، كمن يسأل عن قوله: ﴿ومـن أعرض عن ذكري﴾ [سورة طه، الآية: ١٢٤]، ما ذكره؟ فيقال له هو القرآن مثلاً أو ما أنزله من الكتب، فإن الذكر مصدر والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول، فإذا قيل ذكر الله بالمعنى الثاني، كان ما يذكر به مثل قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وإذا قيل بالمعنى الأول، كان ما يذكره هو وهو كلامه، وهذا هو المراد في قوله: ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ لأنه قال قبل ذلـك ﴿فـإمـا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ [سورة طه، لآية: ١٢٣]، وهداه هو ما أنزله من الذكر. وقال بعد ذلك: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً.

قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾. والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزّل أو هو ذكر العبد له، فسواء قيل ذكري كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك فإن المسمى واحد.

الشـــرح

هنا يقول المؤلف رحمه الله: إذا كان مقصود السائل ـ يعني الذي يسأل عن تفسير آية من القرآن ـ، تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم. فلو قال سائـل: ما معنى قوله: **﴿ومن أعـرض عن ذكـري﴾**؟ وهـل المراد بذكري هو مضاف إلى الفاعل أو مضاف إلى المفعول؟ يعني هل المعنى من أعرض عن ذكره إياي أو المعنى من أعرض عن ذكري الذي أنزلته إليكم؟

والجواب على ذلك أنه يحتمل أن يكون المعنى من أعرض عن ذكـري أي: عن ذكـره إياي، كمـا قال تعـالى: **﴿وأقم الصـلاة لذكـري﴾**، أي: لتذكرني بها، فالمعنى لذكري أي: لذكره إياي، ويحتمل أن يكون المراد بذكري أي: ما أنزلته عليه من الذكرى وهو القرآن، أو بعبارة أعم وأحسن ما أنزله الله من الكتب، وعلى ذلك فالمعنى من أعرض عن الكتب التي أنزلتها ليذّكر بها، وهذا المعنى إلى اللفظ أو إلى السياق أقرب، لقوله: **﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبـع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري﴾**، والمراد بذكري هنا هداه الذي أنزله، لأنه قال: **﴿فمن اتبع هداي﴾**، **ومن أعرض عن ذكري﴾** ولكنه عبر في الإعراض عن ذكره لأن فيما أنزله من الهدى تذكيراً للإنسان وإنذاراً له وتخويفاً.

فهنا إذا سأل عن الذكر فقيل له الذكر قول سبحان الله والحمد

لله، والله أكبر صار تفسيراً صحيحاً، وإذا سأل عن ذكري فقلنا له ذكره ما أنزله من الكتب على عباده صار معنى صحيحاً لأن اللفظ صادق لهما جميعاً.

هذا اختلاف تنوع، لأن المعنى الثاني لا يضاد للمعنى الأول. فكل ما أنزله الله عز وجل فهو مستلزم لذكره وهو تذكير لعباده.

المتن

وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به، فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى مثل أن يسأل عن القدوس، السلام، المؤمن، وقد علم أنه الله، لكن ما معنى كونه قدوساً، سلاماً، مؤمناً، ونحو ذلك.

الشرح

إذا قال: من هو القدوس؟ قلنا: الله. أو قال: من السلام؟ قلنا: الله. لكن إذاً ما القدوس؟ ما السلام؟ فهنا يختلف الجواب، لأن سؤاله بما يدل على أنه أراد المعنى، يعني ما معنى القدوس؟ وما معنى السلام؟ أما إذا قال: من القدوس؟ فلا يمكن أن تفسر القدوس له، بل تعين المراد به المسمى بهذا الاسم، وهو الله سبحانه وتعالى.

المتن

(إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر، كمن يقول: أحمد، والحاشر، والماحي، والعاقب.

والقدوس هو الغفور الرحيم أي: إن المسمى واحد لا أن هذه الصفة هي هذه).